إستمارة المشاركة

الوطني حول العلاقات الحضارية
بين إقليم توات وحواضر المغرب الإسلامي
14- الملتقى 15 أفريل 2009

اللقب: خلوفي

الاسم: بغداد

الوظيفة: أستاذ مساعد – ب –

المؤسسة: قسم التاريخ – كلية العلوم الإسلامية والاجتماعية- جامعة أدرار

الفاكس: 049.96.81.10

الهاتف: 07.79.37.69.18

العنوان البريدي: قسم التاريخ –كلية العلوم الإسلامية والاجتماعية- جامعة أدرار

البريد الإلكتروني: Kheloufibaghdad @ yahoo.fr

عنوان المداخلة: التواصل العلمي بين إقليم توات وحواضر المغرب الإسلامي – قضية يهود توات نموذجا-

لغة المداخلة: اللغة العربية.

- قضية يهود توات نموذجا-

ملخص المداخل :
هده المداخلة عبارة عن محاولة لعرض لمحة عن التواصل العلمي بين إقليم توات وحواضر المغرب الإسلامي خلال القرن التاسع الهجري (15 م) من خلال دراسة قضية يهود توات التي تعد نموذجا معبرا عن هدا التواصل العلمي.
وسأحاول أن أتعرض للمحاور التالية :

- الوضع العام بإقليم توات ومكانة اليهود بها.
- قضية يهود توات وموقف علماء المنطقة منها.
- صدى وتداعيات القضية مغاربيا.

Résumé:
J'ai essayé à partir de cette recherche de présenter un aperçu sur les relations scientifiques entre Touat et les autres centres scientifiques maghrébins pendant le 9° siècle hégire (15° s.j.c), on étudiant l'affaire des juifs de Touat comme un parfait exemple de ces relations.
J'ai tenté de traiter les thèmes suivants:
- l'état général à Touat et la place des juifs dans la société de Touat.
- l'affaire des juifs de Touat et les réactions des savants de Touat.
- l'écho de l'affaire dans tout le Maghreb.

التواصل العلمي بين إقليم توات وحواضر المغرب الإسلامي
- قضية يهود توات نموذجا-

أ. خلوفي بغداد

قسم التاريخ – جامعة

أدرار

مـقدمـة:

لا أريد في هذه المداخلة سرد قصة يهود توات بالتفصيل لأنها أصبحت معروفة وكتب حولها الكثير، لكن ما يهمني هو تداعياتها وخروجها من الإطار المحلي لمنطقة توات إلى إطار الحواضر الإسلامية الأخرى ببلاد المغرب.

لكن هذا لا يمنع بكل تأكيد من التطرق إلى بعض جوانبها الأخرى حتى يمكن الإحاطة بموضوع المداخلة.

- **الوضع العام لمنطقة توات خلال القرن 15م ومكانة اليهود فيها:**

الواقع أن إقليم توات خلال القرن الخامس عشر الميلادي (9هـ) كان إقليما مستقلا عن نفوذ الزيانيين والمرينين، وحتى خضوعها للسلطان أحمد المنصور الذهبي المريني في القرن 16م كان خضوعًا شكليًا ومقتصرًا على دفع الضرائب إلى حكومة المخزن.[1]

وكانت هذه البلاد ملتقى لقوافل التجارة الرابطة بين الشمال والجنوب وبين الشرق والغرب. وبفضل هذا الموقع أصبح الوصول إليها مرحلة حتمية من مراحل سير القوافل وخاصة المتجهة إلى تمبكتو[2] وساعدت ظروف الأمن الذي وفرته توات للقوافل التي تقصد أسواقها أو تمرّ بها أن حرصت هذه القوافل على التوقف بها للتزود بالمؤن وللراحة.[3]

وإلى جانب أهميتها التجارية، فقد احتلت توات مكانة بارزة في النشاط الثقافي والعلمي، وأصبحت مقصدا لكثير من علماء المغرب الذين نزلوا واستقروا بها منذ القرن الخامس عشر الميلادي (9هـ)، ومن هؤلاء الفقيه المغربي ابن يحي الذي قدم إلى توات سنة 815هـ، والشيخ العالم الفقيه يحي بن يدير الذي حل بها سنة 845هـ، والشيخ التلمساني محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي وصلها سنة 882هـ.[4]

وقد عرفت الجالية اليهودية ببلاد المغرب تزايداً مستمراً بسبب الاضطهاد المسلط على اليهود بإسبانيا وحملات الطرد والمتابعة التي مستهم، فلجأ الكثير منهم إلى بلاد المغرب الإسلامي(دولة بني حفص، بني مرين وبني زيان)، حيث وجدوا حسن الضيافة وكثيراً من الفرص الاقتصادية والسياسية لم تكن متوفرة لديهم بإسبانيا، حتى أنهم مكّنوا لأنفسهم في أغلب حواضر بلاد المغرب باعتلائهم مناصب رئيسية مرموقة فيها، كما احتكروا التجارة بنوعيها الداخلية والخارجية وامتهنوا الحرف المهمة... وبالتالي أصبحت لهم مكانة في المجتمع المسلم ببلاد المغرب ككل.

ولا شك أم اليهود أدركوا الأهمية التجارية لإقليم توات في تلك الأثناء، فقصدوها، وامتهنوا بها التجارة والصنائع وأصبح لهم نفوذ كبير بها، حيث تحكموا في الحركة التجارية واستغلوا الحكام والعلماء والأعيان للتعدي على الأحكام وانتشرت مفاسدهم وتقوّى طغيانهم دون أن يحرك المسلمون ساكنا أو يكون لهم رد فعل على ذلك.[5]

- **قضية يهود توات وموقف علماء المنطقة منها:**

لقد أضحت الجالية اليهودية بتوات طاغية بمالها وثرائها الفاحش الذي اكتسبته بالربا وتنمية التجارة غير المشروعة عن طريق استغلال الضعفاء واحتكار الأموال وسلع التجارة وبضائعها.[6]

وقد استغل يهود توات أموالهم وثرائهم فتحكموا في القادة والساسة وتسلطوا عليهم وأخضعوهم لإرادتهم ولخدمة مصالحهم الخاصة.

ويبدوا أن بعض الأمراء وزعماء الأسر الغنية بتوات كان لهم دخل في تنفذ اليهود الاقتصادي والسياسي الذي استغلوه ليمارسوا أعمالا أخرى أبرزها محاولة النيل من عواطف المسلمين الدينية وكرامتهم ببناء بيعة(كنيسة) كبيرة لهم تجاوزت ضخامتها كل الحدود بتمنطيط، كما بنوْا بيع أخرى في واحات توات الأخرى التي يتواجدون بها وكأن منطقة توات أصبحت مملكة لهم وليست أرضا إسلامية.[7]

ومن منطلق أن اليهود أصبحوا يسيطرون على توات ويتصرفون فيها بدون رادع يردعهم أو يوقفهم عند حدهم سواء من زعماء القبائل أو حتى من علماء المنطقة، فقد أجهر الإمام المغيلي لما عاين وشاهد ذلك من اليهود بدعوته إلى إصلاح الوضع وأعلن معاداته لليهود.[8]

وقد أفتى الشيخ المغيلي بأن يدفع اليهود الجزية وهم صاغرون وأن تهدم كنائسهم ويعاملوا معاملة أهل الذمة عامة[9]، وأن يؤدبوا لعدم مراعاتهم لسلوك أهل الذمة.

ولكن يبدو أن فتاوى المغيلي وجدت معارضة من بعض علماء توات وعلى رأسهم قاضي تمنطيط الإمام عبد الله العصنوني، فاتخذت هذه القضية حدة أكبر وإن كان النقاش ظل في هذه المرحلة محليا بين علماء توات.[10]

- **<u>صدى وتداعيات القضية مغاربيا</u>:**

لما انتشر النقاش واحتدم الصراع بين المؤيدين للشيخ المغيلي والمؤيدين للشيخ العصنوني ولمالم يصل الطرفان إلى نتيجة توافقية، حاول كل طرف أن يكسب هذه القضية، فطرح الأمر على علماء أقطار المغرب الإسلامي الأخرى للبث فيه.

ويجهل هل الطرفان اقترحا رفع القضية إلى علماء تلك الأمصار وأوكلت المهمة إلى الإمام العصنوني لتحرير سؤال حول هذا الشأن، أم أن الإمام العصنوني بادر بمفرده إلى استفتاء علماء تلمسان وفاس وتونس.[11]

وقد تعرض الى هده القضية العديد من المؤلفين منهم الإمام الونشريسي في كتابه المعيار، والدي خصص فيه فصلا كاملا جمع فيه فتاوى علماء وفقهاء بلاد المغرب في مسألة هدم بيع يهود توات. كما كتب عنها أحمد بابا التنبكتي في كتابه نيل الابتهاج بتطريز الديباج، وابن مريم في كتاب البستان وكدتك الإمام المغيلي في كتابه مصباح الأرواح في أصول الفلاح.

لكن، ورغم أن القضية أستفتي فيها علماء وفقهاء كبار إلا أن هؤلاء أيضا انقسموا إلى قسمين:

- ❖ قسم أيد الإمام العصنوني في فتواه بعدم جواز هدم بيع اليهود ومنهم القاضي يحي بن أبي البركات الغماري التلمساني وعبد الرحمان بن سبع التلمساني وأبو مهدي

الماواسي مفتي فاس والرصاع مفتي تونس والإمام أحمد بن زكري مفتي تلمسان.[12]

ومن الأجوبة المؤيدة لوجهة نظر الإمام العصنونين جواب الإمام أحمد بن زكري مفتي تلمسان والدي جاء فيه: "هدم الكنائس المسؤول عنها لا يجوز بمقتضى الشريعة المحمدية على رأي المحققين في الفقه المالكي الناظرين في القضية والتشغيب فيها من عدم التحقيق في أصول المسائل العلمية" (منقلاتي، المرجع السابق، ص 262).

- **قسم أيد الإمام المغيلي ومنهم محمد بن يوسف السنوسي ومحمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي.[13]**

ومما جاء في جواب الشيخ السنوسي مؤكدا لما قاله الإمام التنسي: "لقد بلغنا أيها السيد ما حملتكم عليه الغيرة الإيمانية والشجاعة العلمية من تغييركم إحداث اليهود أدلهم الله وأخمد كفرهم، كنيسة في بلاد المسلمين وأنكم فرضتم أهل تمنطيطة على هدمها فتوقفوا من جهة من عارضكم في دلك من أهل الأهواء فبعثتم لدلك أسئلة تستنهضون بها العلماء لينظروا في دلك. فاعلم أنني لم أر من وقف لإجابة هدا المقتصد وبدل وسعه في تحقيق الحق وشفاء غليل أهل الإيمان في المسألة ولم يلتفت لأجل قوة إيمانه ونصوع إيقانه لما يشير إليه من تتقى شوكته ويخشى وقوع ضرر منه سوى الشيخ الإمام القدوة الحافظ المحقق علم الأعلام أبو عبد الله التنسي أمتع الله به المسلمين وجزاه خيرا: فقد مد باعه في ابانة الحق ونشر أعلامه وأطال النفس وحقق نقلا وفهما وبالغ في دلك حتى أبدى من نور إيمانه الماحي ظلمات الكفر أعظم قبس."(يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 77).

ولعل السؤال الذي بعث به العصنوني كان يخفي الجانب السياسي للمسألة والذي كان سبب ثورة المغيلي، مركزاً على الجانب الفقهي لها فقط الذي لا يجيز هدم كنائس اليهود إذا ما استوفى عقد أهل الذمة شروطه.

لذلك حسب أبو القاسم سعد الله، فإن بعض العلماء لما استحلوا الجانب السياسي للموضوع بعد أن بعث المغيلي لهم ما يبين دلك، انتصروا له وتراجعوا عن مواقفهم السابقة ومنهم أحمد بن زكري مفتي تلمسان ومفتي فاس ومفتي تونس.[14]

ورغم ما تعرض له الإمام المغيلي من خلال هده القضية من افتراءات مغرضة ودعاوى باطلة، حيث أتهم من طرف بعض علماء فاس على أنه صاحب طموح سياسي وأن ما يقوم به في توات يخفي وراءه أهدافا وطموحات سياسية.

غير أن الإمام المغيلي انتصر في هذه القضية وشارك بنفسه في تهديم بيع اليهود في منطقة توات، وأغلقت هده القضية بعدما شغلت الرأي العام بتوات، وعلماء حواضر المغرب الإسلامي ككل.

خاتمة:

ما يمكن أن نخلص إليه من هذه المداخلة أن التواصل العلمي بين علماء توات وعلماء حواضر المغرب الإسلامي الأخرى في القرن 15م (8هـ) كان ممتداً، ولم تكن منطقة توات بمعزل عن تلك الحواضر من الناحية الثقافية، بل كانت متصلة بها اتصالاً وثيقا مثلما كانت متصلة بها تجارياً.

كما أن الثقافة التواتية لم تكن ثقافة محلية الطابع غم وقوع الإقليم في قلب الصحراء، وكان هذا نتيجة سفر الكثير من فقهاء توات إلى كل من فاس وتونس وتلمسان ومصر والحجاز والشام، وكذلك قدوم علماء هذه المدن والمناطق إلى توات.

الـهوامـش:

[1] ـ عبد الله منقلاتي، موقف الشيخ المغيلي من يهود توات، مجلة الحقيقة، عدد 06 ماي 2005، ص254.
[2] ـ فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين 18و19م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر: 1984، ص77.
[3] ـ نفس المرجع ، ص78.
[4] ـ نفس المرجع، ص.ص(93-92).
[5] ـتذكر بعض الكتابات وجود جالية يهودية قليلة العدد قبل هذه الفتة، ومنهم الشيخ المهدي البوعبدلي الذي قسم هؤلاء إلى ثلاثة أقسام:

- اليهود الأصليين الذين كانوا من أهل الذمة الذين يشرفون ويتحكمون في الجالية اليهودية ككل ويقفون وراء الفساد الذي عم المنطقة.
- ب-. اليهود الأصليين الذين اعتنق آباؤهم الإسلام واندمجوا مع المسلمين وهم يعرفون بالمهاجرة.
- ج-. وهم موضوع الاستفتاء الذي ورد أول مرة على المغيلي ويُعرفون بالغلائف وأغلبهم حديثوا عهد بتوات.

أنظر: عبد الله منقلاتي، المرجع السابق، ص 259.
[6] ـ يحي بوعزيز، تاريخ إفريقية العربية الإسلامية، دار هومة، الجزائر: 2001، ص 54.
[7] ـ نفس المرجع، ص 73.
[8] ـ عبد الله منقلاتي، المرجع السابق، ص 258.
[9] ـ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، دار البصائر، الجزائر: 2008، ص54.
[10] ـ عبد الله فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج2، موفم للنشر، الجزائر: 2002، ص412.
[11] ـ عبد الله منقلاتي، المرجع السابق، ص 261.
[12] ـ نفس المرجع، ص 262.
[13] ـ أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 54.
[14] ـ نفس المرجع، ص 54.